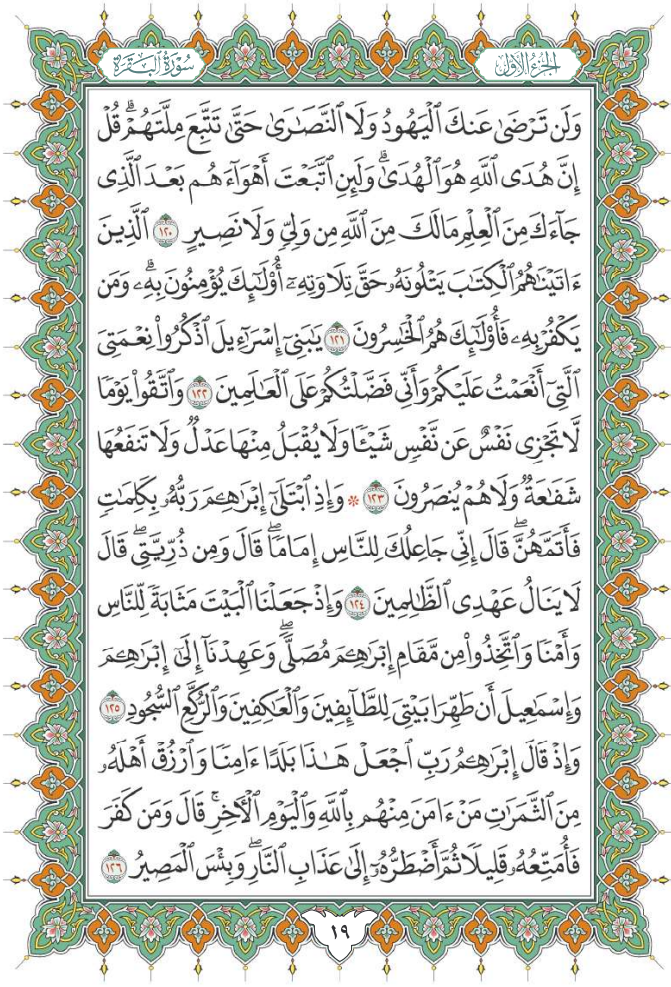

﴿١٢٠﴾- فلا ترهق نفسك في استرضاء المعاندين من اليهود والنّصارى، فإنّ هؤلاء لن يرضوا عنك حتى تصبأ إلى دينهم الّذي يزعمو ن أنّه الهدى، وليس ثمّة هدى صحيح إلا هدى الله في الإسلام، ومن يتّبع أهواء وأضاليل هؤلاء من بعد أن علم ما أوحيناه إليك من الحقّ، فلن يكون له يوم القيامة من دون الله محبّ يعينه، ولا ناصر يدفع عنه العذاب.

﴿١٢١﴾ غير أنّ ثمّة فريقًا من اليهود والنّصارى قد تفقّهوا في أسفارهم الأصيلة، وتلوها حقّ تلاوتها، وفطنوا إلى ما دخلها من تحريف، فأولئك يؤمنون بحقائقها ويؤمنون تبعًا لذلك بالقرآن، ومن يكفر بكتاب منزل فأولئك هم الهالكون.

﴿١٢٢﴾- يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي العظيمة التي أنعمت بها عليكم بإخراجكم من ظلم فرعون وإغراقه، وإعطائكم المنّ والسّلوى، وبعث الأنبياء فيكم، وتعليمكم الكتاب... وغير ذلك مما شرّفتكم به، وأنّي فضّلتكم- وقتًا من الزّمان- على النّاس في جعل مصدر النّبوّات منكم.

﴿١٢٣﴾- وخافوا عقاب الله في يوم لا تدفع فيه نفس عن نفس شيئًا، ولا يقبل منها فداء، ولا ينفعها طلب العفو، ولا يجد فيه الكافرون نصيرًا لهم من دون الله.

﴿١٢٤﴾- وإذ اختبر الله إيمان إبراهيم عليه السلام بأوامر ونواه كلّفه بها، فقام بها على أتمّ وجه، فقال تعالى: إنّي جاعلك للنّاس إمامًا يتّبعونك ويقتدون بك، فطلب إبراهيم عليه السلام من ربّه أن يكون ذلك أيضًا لذريّته من بعده، فأجابه بأنّ ذلك لن يصل إليه منهم الظّالمون، وأشار تعالى أنّه سيكون من ذريّته عليهم السلام الأبرار والفجّار.

﴿١٢٥﴾- واذكروا قصّة بناء إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام لبيت الله الحرام بمكّة، وفي هذه القصّة عظة بالغة لمن كان له قلب سليم، إذ جعلنا هذا البيت ملاذًا للخلق ومأمنًا لكلّ من يلجأ إليه. وإذ أمرنا النّاس بأن يتّخذوا من موضع قيام إبراهيم عليه السلام لبناء الكعبة مكانًا يصلّون فيه، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يصونا البيت ممّا لا يليق بحرمته، وأن يهيّئاه تهيئة صالحة لمن يؤمّه من الطّائفين والمعتكفين والمصلّين.

﴿١٢٦﴾- واذكروا إذ طلب إبراهيم عليه السلام من ربّه أن يجعل البلد الذي سينشأ حول البيت بلدًا آمنًا، وأن يرزق من ثمرات الأرض وخيراتها من آمن من أهله بالله واليوم الآخر وانقاد لدينه، فأجابه الله بأنّه لن يضنّ على الكافر نفسه بالرّزق في أثناء حياته القصيرة، ثمّ يلجئه يوم القيامة إلى عذاب جهنّم، ولبئس مآل هؤلاء.

الآيات من 119 - 121

التّحذير من اتّباع اليهود والنّصارى

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

سبب نزول الآيات (١١٩- ١٢١): قال مقاتل: إنّ النّبيّ ﷺ قال: «لَوْ أَنْزَلَ اللهُ بَأْسَهُ بِاليَهُودِ لآمَنُوا»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾.

وأمّا الآية (١٢٠): فقال المفسّرون: إنّهم كانوا يسألون النّبيّ ﷺ الهدنة، ويطمعون أنّه إذا هادنهم وأمهلهم اتّبعوه ووافقوه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: هذا في القبلة، وذلك أنّ يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلّي النّبيّ ﷺ إلى قبلتهم، فلمّا صرف الله القبلة إلى الكعبة، شقّ ذلك عليهم، فيئسوا منه أن يوافقهم على دينهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وأما الآية (١٢١): فقال ابن عبّاس في رواية عطاء والكلبي: نزلت في أصحاب السفينة الذين أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة، كانوا أربعين رجلًا من الحبشة وأهل الشام.

قال الضحّاك: نزلت فيمن آمن من اليهود. وقال قتادة وعكرمة: نزلت في أصحاب سيّدنا محمّد ﷺ [1].

المناسبة: لمّا بيّن الله الآيات، ذكر من بُيّنت على يديه، فأقبل عليه وخاطبه ﷺ ليعلم أنّه هو صاحب الآيات، وبعد إثبات الوحدانيّة أردفه بإثبات النّبوّة.

المعنى العام

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾.

يقول تعالى: يا محمّد ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ متلبّسًا بالحقّ الواضح ومبيّنًا له، وما خلافه هو الباطل، ﴿بَشِيرًا﴾ مبشرًا لمن تبع الحقّ وصدقك بالنّعيم المقيم، ﴿وَنَذِيرًا﴾ ومنذرًا لمن خالفه بالعذاب المهلك. ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ فلا تُسأل عن حالهم إذا أفضوا إليه، فإنّه أعظم من أن يُذكر، وأفظع من أن يُسمع، إذ لا يمكن تفسير حالهم، ولا يستطيع أحد سماع أهوالهم.

عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ؟ قَالَ: "أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا" [2].

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب نزول القرآن، عن مقاتل، سورة البقرة، الآية: ١١٩، ج١، ص٥٤٣.

(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو بن العاص، حديث رقم: ٢١٢٥، كتاب: البيوع، باب، كراهية السخب في السوق.

وزاد أحمد في روايته: قَالَ عَطَاءٌ: "لَقِيتُ كَعْبًا فَسَأَلْتُهُ، فَمَا اخْتَلَفَا فِي حَرْفٍ، إِلَّا أَنَّ كَعْبًا يَقُولُ بِلُغَتِهِ: أَعْيُنًا عُمُومَى، وَآذَانًا صُمُومَى، وَقُلُوبًا غُلُوفَى"(١).

ثمّ يقول تعالى ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾.

يقول الحقّ ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى﴾ وتتّبع دينك أبدًا، ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ على فرض المحال، والمقصود قطع رجائه ﷺ من إسلامهم باختيارهم، لأنّ اتّباعه ملّتهم محال، وكذلك إسلامهم. ولعلّه في قوم مخصوصين. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ﴾ الذي أنزله على أنبيائه ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ الصحيح، ثمّ زاد تعالى في التّنفير من اتّباعهم فقال: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ الباطلة فرضًا وتقديرًا ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بالله وبأحكامه على المنهاج القويم، ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يمنعك منا، ﴿وَلا نَصِيرٍ﴾ ينصرك من غيرنا، فلا وليّ ولا نصير لك إلا نحن حيث واليتنا، وأحببتنا، وأظهرت ملّتنا، فنحن لك على ما تحبّ وترضى(٢).

وقد استدلّ كثير من الفقهاء بقوله: ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ حيث أفرد المِلّة، على أنّ الكفر كلّه ملّة واحدة، فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكفّار، وكلّ منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا، لأنّهم كلّهم ملّة واحدة، وهذا مذهب الشّافعيّ وأبي حنيفة وأحمد في رواية عنه، وقال في الرّواية الأخرى كقول مالك: إنّه لا يتوارث أهل ملّتين شتّى(٣) كما جاء في الحديث عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ، وَلَا يَرِثُ مُسْلِمٌ كَافِرًا، وَلَا كَافِرٌ مُسْلِمًا»(٤).

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

يقول الحقّ ﷻ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ حالتهم يتلونه حقّ تلاوته غير محرّفين له، ولا كاتمين ما فيه، ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أولئك هم الذين يؤمنون به حقيقة ويتفاعلون مع قراءة الكتاب، ﴿وَمن يَكْفُرْ بِهِ﴾ وأمّا غيرهم ممّن حرّف وكتم صفة الرّسول ﷺ فقد كفر به، ومن يكفر به ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي الكاملون في الخسران، حيث بخسوا أنفسهم من عزّ الدّارين.

وروى ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ قال: إذا مرّ بذكر الجنّة سأل الله الجنّة، وإذا مرّ بذكر النّار تعوّذ بالله من النّار، وعن ابن عبّاس ﷺ في هذه الآية قال: "يُحِلُّونَ حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ، وَلَا يُحَرِّفُونَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ"(٥) وقال ابن مسعود ﷺ: والذي نفسي بيده إنّ حقّ تلاوته أن يحلّ حلاله ويحرّم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرّف الكلم عن مواضعه ولا يتأوّل منه شيئًا على غير تأويله. وقال الحسن البصريّ: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالِمه(٦).

---

(١) رواه أحمد في مسنده، عن عطاء عن كعب، حديث رقم: ٦٦٢٢، مسند: المكثرين من الصحابة، مسند: عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، الحديث صحيح.

(٢) ذكره ابن عجيبة في البحر المديد، باب: سورة البقرة، الآية: ١٢٠، ج١، ص١٦٠.

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره، باب: سورة البقرة، الآيتان: ١٢٠- ١٢١، ج١، ص٢٨١.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك، عن أسامة بن زيد، حديث رقم: ٢٩٤٤، كتاب: التفسير، باب: من كتاب قراءات النّبيّ ﷺ، الحديث صحيح الإسناد.

(٥) رواه الحاكم في المستدرك، عن ابن عبّاس، حديث رقم: ٣٠٥٤، كتاب: التفسير، باب: من سورة البقرة، الحديث صحيح الإسناد.

(٦) رواه ابن كثير في تفسيره، باب: سورة البقرة، الآيتان: ١٢٠- ١٢١، ج١، ص٢٨٢.

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيات:

١. على المؤمن أن يدعو إلى الله تعالى، وليس عليه أن يهدي، إذ الهداية بيد الله، وأمّا الدّعوة فهي في قدرة الإنسان، وهو مكلّف بها.

٢. اليهود والنّصارى فريقان:

أ- **فريق يريد الحقّ ورضا الله** ويبحث عنه وهو صادق غير معاند، فهذا سيؤمن عندما يرى الحقّ و يجده كما يأمر به كتابه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1] أي: إذا أقمتموها حقّ الإقامة، وآمنتم بها حقّ الإيمان، وصدّقتم ما فيها من الإخبار بمبعث سيّدنا محمّد ﷺ ونعته وصفته، والأمر باتّباعه ونصره ومؤازرته، قادكم ذلك الحقّ واتّباع الخير في الدّنيا والآخرة.

ب- **فريق يريد الدّنيا والأهواء** ويتغطّى بغطاء الدّين، فهذا لن يؤمن لك لأنّ ما تدعو اليه مخالف لما يريد، وهذا هو الفريق الذي يتّبع هواه ولا يتّبع كتابه.

لا يحصل المسلم على رضا اليهود والنّصارى إلا بالكفر بالإسلام واتّباع أهواءهم، قال ﴿أهواءهم﴾ لأنّهم لا يتّبعون للحقّ بل يتبعون أهواءهم وهذا ما لا يكون للمسلم أبدًا، فلذا طَلَب رضا اليهود والنّصارى محرّم ولا يحلّ أبدًا.

٣. اِعلم أنّ مساكنتهم إلى ما يرضون سبب الشّقاوة المؤبّدة، فاحرص ألا يخطر ذلك بِبالِك، وادعُ أُمَّتَكَ إلى البراءةِ منهم ومن طريقتهم، وكُنْ بِنا لَنَا، مُتَبَرِّيًا عمّن سوانا، واثقًا بنصرتنا، فإنَّكَ بِنَا وَلَنَا.

٤. لا دين حقّ إلا الإسلام فلا ينبغي أن يُلْتَفَتَ إلى غيره أبدًا.

٥. من يوالي اليهود والنّصارى باتّباعهم على باطلهم، يفقد ولاية الله تعالى ويُحرم نصرته.

٦. طريق الهداية في تلاوة كتاب الله حقّ تلاوته بأن يتدبّره هداية، ويؤمن بمحكمه ومتشابهه، ويتخلّق بأخلاقه ويتأدّب بآدابه ويحلّل حلاله ويحرّم حرامه، ويقيم حدوده كما يقيم حروفه.

٧. ليس هناك هدىً إلا في كلام الله سبحانه وكلام رسوله ﷺ، فاجتهد في تأمّلهما فيما يصلح الإنسان، سواء في الشّؤون الزّوجيّة أو في الشّؤون الاجتماعيّة أو التّربويّة أو الدّينيّة أو الرّاحة النّفسيّة أو الفوز بسعادة الدّنيا والآخرة، فليس في علم الطّاقة ولا في علم التّأمّل meditation ما يوصل الى الغايات المطلوبة سواء في الدّنيا ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2] ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[3] أو في الآخرة. لأنّ الطّريق لا بُدّ أن يُبنى على عقيدة صحيحة وقصد صريح في حبّ الله والفوز برضاه. فالسّعادة هي سعادة الرّوح، أمّا الجسد فليس له إلّا اللّذة، فإنّ الرّوح لا ترتاح ولا تأنس إلّا بالعودة إلى بارئها. ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

٨. ما هو رجاؤُنا؟ و عن ماذا نبحث؟ إنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ...

٩. الحنينُ إلى الملإِ الأعلى، والشّوقُ إلى الوطنِ الأمّ هو رجاؤنا... قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ* ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[4].

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٨. (٢) سورة يونس، الآية: ٦٢. (٣) سورة الرحمن، الآية: ٤٦. (٤) سورة الفجر، الآيتان: ٢٧-٢٨

قصّة تُروى:

وضعت إحدى البطات بيضةً، ففرحت بها كثيرًا. ثمّ جاء طائر غريب، فحمل تلك البيضة بعيدًا ووضعها في عُش دجاجةٍ كانت تحضن بيضها. وعندما فقس البيض، خرجت فراخ الدجاجة، وخرج معها فرخ البط الصّغير! ولكنّه كان يظنّ نفسه فرخًا من فراخ الدجاج فقط، فعاش حياته كما يعيش سائر الفراخ؛ إلّا أنّه كان يشعر بشيء غريب يتحرّك في داخله. وكلّما اقترب من الماء، كان يشعر بشيءٍ يدعوه إلى أن ينزل إليه ويسبح. لكنّ إخوتَه من فراخ الدجاج كانوا يثنونه عن ذلك كلّما همّ، خوفًا عليه من الغرق بزعمهم، حتّى جاء يومٌ، فشجّع نفسه وغامر، ورمى بنفسه في الماء. فوجد نفسه يسبح فوق سطحه، وإذا به يشعر بإحساسٍ غريب وجميل! لقد اكتشف نفسه، ووجد سعادته وأُنسه.

وكذلكَ أنتَ -أيُّها الإنسانُ- رُوحُكَ مخلوقةٌ مِن الملإِ الأعلى، جعلَها الله تعالى في هذا الجسدِ، وهي دومًا تحِنُّ إلى الملإِ الأعلى، وإلى رؤيةِ ربِّها، ومعرفتِه وسماعِ كلامِه. فكأنَّ ثمَّةَ نداءً في داخلِكَ يناديكَ: **دَعْ عنكَ الأواني وخُضْ بحرَ المعاني... لعلَّك تراني!.**

فالجسدُ هو الأواني، والرّوحُ مِن بحرِ المعاني. وأنتَ برُوحِكَ لا بجسدِكَ، فَتَعَرَّفْ إلى الله تعالى، واستمعْ لذيذَ خطابِه. وكفاكَ اهتمامًا بالجسدِ، وإهمالًا للرُّوحِ! فَلَقَدْ أكرمَكَ الله تعالى بهذِه الرُّوحِ وميّزَكَ بها على سائرِ خَلْقِه. أرأيتَ إذا ما كنتَ نائمًا ورأيتَ نفسَكَ في الجنَّةِ، تسمعُ وترى ما لا يخطرُ على بالٍ! تُرى مَن ذا الذي سمِعَ وأنتَ نائمٌ؟! أُذنُكَ أم رُوحُكَ؟ ومن ذا الّذي رأى وأنتَ في حُلُمِكَ أو مَنامِكَ؟ أعينُكَ أم روحُكَ؟ إنّما حصلَ لكَ هذا وأنتَ نائمٌ؛ لأنّ سلطانَ الحواسِّ يَضعُفُ أثناءِ النّومِ، فتنطلقُ الرُّوحُ.

وكذلكَ أهلُ مقامِ الإحسانِ، لَمّا طهَّرَ الله تعالى قلوبَهم مِن العُيوبِ؛ كشفَ لهم الحجُبَ، وأرَاهُم مِن عالمِ الغُيوبِ وعالَمِ الملكوتِ، وهم في حالِ اليقظةِ. وفجَّرَ يَنابيعَ الحِكْمةِ في قلوبهم وها هو ذا رسولُ الله ﷺ يقولُ لسيّدِنا حارثة رضي الله عنه: «**كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ؟**» قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**انظر مَا تَقُولُ، فَإِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً فما حقيقة إِيمَانِكَ؟**» فَقَالَ: عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَأَسْهَرْتُ لَيْلِي وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أنظر إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أنظر إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ كَيْفَ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي انظر إِلَى أَهْلِ النَّارِ كَيْفَ يَتَعَادَوْنَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيّ ﷺ: «**أَبْصَرْتَ فَالْزَمْ، مَرَّتَيْنِ، عَبْدٌ نَوَّرَ الله الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ**»[1].

صار حارثة وكأنّه يرى العرش وهو في الدُّنيا، وكأنّه يرى أهل الجنّة في الجنّة يتنعّمون وهو يقظ وليس بنائم. لذلك قال له ﷺ أصبت فالزم... أي أصبت الصّراط المستقيم والطّريق القويم، فاستمرّ حتّى تنتقل من شهود الجنّة إلى شهود ربّ العالمين ﷻ.

فيا أيُّها الإنسانُ! لا بدَّ لكَ من إحياءِ صِراطِ الّذينَ أنعمَ الله عليهم. وهو أن تأخذَ الدّينَ بِكُلِّيَّتِهِ، فالشّريعةُ تحكمُ جسدَكَ أي ظَاهِرَكَ وتديرُهُ، والإيمانُ يُحْيِي قلبَكَ وَيُنِيرُهُ، والإحسانُ يَنْطَلِقُ برُوحِكَ إلى الملإِ الأعلى لتشهدَ باريها.

(١) رواه البيهقيّ في شعب الإيمان، عن أنس بن مالك، حديث رقم: ١٠١٠٦، كتاب وباب: الزهد وقصر الأمل.

وصَدَق من قال:

قُلُوبُ العَارِفِينَ لَهَا عُيُونٌ ... تَـرَى مَا لَا يَرَاهُ النَّاظِرِينَا
وَأَلْسِـنَةٌ بِأَسْـرَارٍ تُنَـاجِي ... تَغِيبُ عَنِ الكِرَامِ الكَاتِبِينَا
وَأَجْنِحَةٌ تَطِيرُ بِغَيْرِ رِيشٍ ... إِلَى مَلَكُوتِ رَبِّ العَالَمِينَا
عِبَادٌ أَخْلَصُوا فِي السِّرِّ حَتَّى ... دَنَوْا مِنْهُ وَصَارُوا وَاصِلِينَا

في الأمر والنّهي

العمل بالآيات:

- تنبّه من شدّة عداء عموم اليهود ومن والاهم، وأنّ غاية رغبتهم تركنا للدّين، مستدلًا بالآية وشواهد الواقع المعاصر، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾. وليكن لذلك تأثير في قراراتك واختياراتك.

فعن أبي سعيد رضي الله عنه أنَّ النّبيّ ﷺ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بشبْر، وذراعًا بذراع، حتَّى لو سَلَكُوا جُحْر ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ» قلنا: يا رسول الله: اليهودُ والنَّصارى؟ قال: «فَمَن؟!»[1]. زاد الحاكم في مستدركه، "حتى لو أن أحدهم جامع زوجته بالطريق لفعلتموه".

فالنّبيّ ﷺ في قوله: «حتَّى لو سَلَكُوا جُحْر ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ» ضرب المثل بجحر الضّبّ لشدّة ضيقه ورداءته، ونتن ريحه وخباثته، وفيه دليل على تمام الاتّباع وكماله، وشدّة موافقتهم وتقليدهم، حتّى لو كان من وراء هذا التّقليد السوءُ والشرُّ، والوقوع في الحرج والضّرّ، والضّيق والعنت، وحتّى لو كان من ورائه سوءُ النّتائج، ووخيم العواقب، وفسادُ الأسر والمجتمعات، وضياع الدّين والمبادئ والأخلاق.

في الأخلاق والآداب

التوجيهات:

- جاء رسولنا الكريم ﷺ بالبشارة والنّذارة؛ فمن اهتمّ بالبشارات وحدها فقد أخطأ، ومن اهتمّ بالنّذارات وحدها فقد أخطأ، ومن جمع بينهما فقد أصاب، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.
- لا يمكن للمسلم أن يحصل على الرّضا التّامّ من اليهود والنّصارى إلا بأن يدخل في أهوائهم؛ فليبحث عن رضا الله سبحانه فقط، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

النّجاشي رضي الله عنه هو أوّل من أسلم مِنْ ملوك العجم، وقد توفي في حياة النّبيّ ﷺ:

ومن المعلوم والثّابت من أحداث السّيرة النّبويّة، أنّ النّبيّ ﷺ أشفق على أصحابه لِما رأى ما يصيبهم من شدّة العذاب والبلاء من كفّار قريش ليفتنوهم عن دينهم، فعن أُمِّ سَلَمَةَ- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- زَوْجِ النّبيّ ﷺ، أَنَّهَا قَالَتْ:

(١) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي سعيد، حديث رقم: ٣٤٥٦، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل.

"لَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْنَا مَكَّةُ وَأُوذِيَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَفُتِنُوا وَرَأَوْا مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ فِي دِينِهِمْ، وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَعَمِّهِ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ مَا يَنَالُ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ»**، فَخَرَجْنَا إِلَيْهَا أَرْسَالًا حَتَّى اجْتَمَعْنَا وَنَزَلْنَا بِخَيْرِ دَارٍ إِلَى خَيْرِ جَارٍ أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَلَمْ نَخْشَ مِنْهُ ظُلْمًا"[1].

وتروي أمّ سلمة -زوج النّبيّ ﷺ- قصّة هذه الهجرة، فتقول: "لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ، جَاوَرْنَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيَّ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللهَ تَعَالَى، لَا نُؤْذَى وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا، ائْتَمَرُوا بِإِبْعَاثِ رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ إِلَى النَّجَاشِيِّ، فَحَمَلُوا لَهُ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطْرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وَبَعَثُوا عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ لِيَحْتَجُّوا عَلَى النَّجَاشِيِّ فِيهِمْ، فَقَدَّمَا لَهُ هَدَايَا فَقَبِلَهَا.

قَالَا: "أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ". فَقَالَ النَّجَاشِيُّ: "لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ، حَتَّى أَسْأَلَهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِمْ". فَجَمَعَ النَّجَاشِيُّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: "كُنَّا قَوْمًا فِي جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، فَأَمَرَنَا بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ". فَسَأَلَهُ النَّجَاشِيُّ عَنْ عِيسَى، فَقَالَ جَعْفَرٌ: "نَقُولُ فِيهِ مَا قَالَ اللهُ، هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ". فَفَجَأَ النَّجَاشِيُّ وَبَكَى حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، فَقَالَ النَّجَاشِيُّ: "إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ". ثُمَّ رَدَّ هَدَايَاهُ وَقَالَ: "وَاللهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا". فَخَارَتْ قُرَيْشٌ فِي إِمْرَتِهِمْ، وَبَقُوا فِي حِمَا النَّجَاشِيِّ فِي خَيْرِ جَارٍ[2].

صلاة النّبيّ ﷺ على النّجاشي بعد موته:

أسلم النّجاشي رضي الله عنه وصدّق بنبوّة النّبيّ ﷺ، وإن كان قد أخفى إيمانه عن قومه[3]، لما علمه فيهم من الثّبات على الباطل وحرصهم على الضّلال، وجمودهم على العقائد المنحرفة. فعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: "أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَنْطَلِقَ إِلَى أَرْضِ النَّجَاشِيِّ،... فَقَالَ النَّجَاشِيُّ لِجَعْفَرٍ: مَا يَقُولُ صَاحِبُكَ فِي ابن مَرْيَمَ؟... فَتَنَاوَلَ النَّجَاشِيُّ عُودًا مِنَ الْأَرْضِ... مَرْحَبًا بِكُمْ، وَبِمَنْ جِئْتُمْ مِنْ عِنْدِهِ، فَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ وَأَنَّهُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى ابن مَرْيَمَ وَلَوْلَا مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ، لَأَتَيْتُهُ حَتَّى أَحْمِلَ نَعْلَيْهِ..."[4] وقد صلّى عليه النّبيّ ﷺ صلاة الغائب حين وفاته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: "أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَعَى النَّجَاشِيَّ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، وَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى الْمُصَلَّى، فَصَفَّ بِهِمْ، وَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ"[5].

وبلفظ آخر، عن جابر رضي الله عنه قال: قال النّبيّ ﷺ حين مات النّجاشي: **«مَاتَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ»**[6].

---

(١) رواه البيهقيّ في السُّنن الكبرى، عن أم سلمة، حديث رقم: ١٧٧٣٤، كتاب: السير، باب: الإذن بالهجرة.
(٢) رواه أحمد في مسنده، عن أم سلمة، حديث رقم:٢٢٤٩٨، مسند: تتمة مسند الأنصار، مسند: جعفر بن أبي طالب وهو حديث أم سلمة، الحديث إسناده حسن.
(٣) بل أجمع علماء السير والتاريخ وورد في كتب الحديث أيضًا أنه أسلم على الملأ وهو الذي حدث عليه انقلاب لكنه انتصر عليهم.
(٤) رواه الحاكم في المستدرك، عن أبي موسى، حديث رقم: ٣٢٠٨، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة النساء، الحديث صحيح.
(٥) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١٣٣٣، كتاب: الجنائز، باب: التكبير على الجنازة أربعًا.
(٦) رواه البخاريّ في صحيحه، عن جابر، حديث رقم: ٣٨٧٧، كتاب: مناقب الأنصار، باب: موت النجاشي.

في السّلوك

الإشارة: التماس رضى النّاس من علامة الإفلاس، ولن يرضى عنك النّاس حتّى تتّبع أهواءهم، ولئن اتّبعت أهواءهم بعد ما تحقّقت ما هم فيه، إنّك إذن لمن الظّالمين، فمن التمس رضى النّاس وقع في سخط الله، ومن التمس رضى الله قطع يأسه من النّاس. ولذلك قال بعضهم: كلّ ما سقط من عين الخلق عظم في عين الحقّ، وكلّ ما عظم في عين الخلق سقط من عين الحقّ، وقال آخر: إنّ الذي تكرهون منّي هو الذي يشتهيه قلبي.

الإشارة: ما قيل في التّوراة وأصحابه يقال مثله في القرآن وأهله فمن آتاه الله القرآن، وتلاه حقّ تلاوته، بحيث جَوَّدَ حروفه وتَدبَّر معانيه، وعمل بما فيه، فأولئك هم المؤمنون به حقًّا، والفائزون بثمار معانيه حلاوة وذوقًا، ومن ترك التّدبر في معانيه فقد حرم نفسه ثمار حلاوته، وذلك عين الخسران عند أهل الإيقان.

في الإعجاز العلميّ

في أشراط السّاعة

عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الدِّينِ ظَاهِرِينَ لَعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأْوَاءَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: «بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ»[1].

في الأدعية والأذكار

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[2].

(١) رواه أحمد في مسنده، عن أبي أمامة، حديث رقم: ٢٢٣٢٠، مسند: تتمّة مسند الأنصار، مسند: حديث أبي أمامة الباهليّ، الحديث صحيح لغيره دون قوله: يا رسول اللّه، وأين هم؟

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨.